كذب وأساطير الأولين ، وهذا كله إفلاس فى الحُجَّة ، وتصيُّد لا معنى له ، ودليل على تضارب أفكارهم .

ألم يقولوا هم أنفسهم : ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف] إذن : هم يعرفون صدْق القرآن ومكانته ، وأنه من عند الله ، ولا يعترضون عليه فى شىء ، إنما اعتراضهم على مَنْ جاء بالقرآن ، وفى هذا دليل على أنهم ليستْ عندهم يقظة فى تغفيلهم .

وتأمل : ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ .. (٥٠)﴾ [الأنبياء] ولم يقل : هذا القرآن ، كأنه لا يُشار إلا إلى القرآن .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ(١) مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١)﴾

نلاحظ أن الحق سبحانه بدأ تسليته لرسوله ﷺ بذِكْر طرف من قصة موسى ، ثم ثنَّى بقصة إبراهيم ، مع أن إبراهيم عليه السلام سابقٌ لموسى ، فلماذا ؟ قالوا : لأن موسى له صلَة مباشرة باليهود وقريب منهم ، وكان اليهود معه أهلَ جَدَل وعناد .

ومعنى ﴿رُشْدَهُ .. (٥١)﴾ [الأنبياء] الرُّشْد : اهتداء العقل إلى الأكمل فى الصلاح والأعلى فى الخير ، بحيث لا يأتى بعد الصلاح فسادٌ ، ولا بعد الخير شر ، ولا يُسلمك بعد العُلو إلى الهبوط ، هذا هو الرُّشْد . أما أنْ يجرَّك الصلاح الظاهر إلى فساد ، أو يُسلمك الخير إلى شر ، فليس فى ذلك رُشْدٌ .

---

(١) أى : من قبل النبوة . أى : وفقناه للنظر والاستدلال . لما جَنَّ عليه الليل فرأى النجم والشمس والقمر . وقيل : « من قبل » أى : من قبل موسى وهارون . والرشد على هذه النبوة . وعلى الأول أكثر أهل التفسير . قاله القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٧٣) .

والآن نسمعهم يتحدثون عن الفنون الجميلة ، ويستميلون الناس بشعارات برّاقة أعجبتْ الناس حتى وصلت بهم الجرأة إلى أنْ قالوا عن الرقص : فنٌّ راقٍ وفنّ جميل .. سبحان الله ، الرقص كما قلتم لو أنه فعلاً راقٍ وجميل ، وظل كذلك إلى آخر الطريق ، ولم ينحدر إلى شيء قبيح وهابط ، ماذا يحدث حين يجلس الرجل أمام راقصة تُبدي من مفاتنها وحركاتها مَا لاَ تُحسنه زوجته في البيت ؟ كم بيوت خَرِبَتْ وأُسَر تهدمت بسبب راقصة ، فأيُّ رقيٍّ ؟ وأيُّ جمال في هذا الفن ؟!

لذلك ؛ فالإمام علي - كرَّم الله وجهه - لخَّص هذه المسألة فقال : « لا شَرَّ في شَرٍّ بعده الجنة ، ولا خيرَ في خير بعده النار » .

إذن : على الإنسان أن ينتبه إلى الرُّشْد الذي هو اهتداء العقل إلى الصالح الأعلى أو إلى الكمال الأعلى أو الخير الأعلى . وهذا الرُّشْد له اتجاهان : رُشْد البِنْية ، ورُشْد المعنى .

رُشْد البِنْية وهو اكتمال تكوين الإنسان بحيث يُؤدِّي كل جهاز فيه وظيفته ، وهذا لا يكون إلا بعد سنِّ البلوغ ، وقد جعل الخالق سبحانه استواء الأعضاء التناسلية دليلاً على اكتمال هذا الرُّشْد حين يصير المرء قادراً على إنجاب مثله .

وهذا واضح في الثمار حيث لا يحلو مذاقها إلا بعد نضجها واكتمال بذرتها لتكون صالحة للإنبات إذا زرعتها ، وهذا من حكمة الخالق - سبحانه وتعالى - فنأكل الثمرة ونستبقي نوعها ببذرتها الصالحة ، أمّا لو استوت الثمرة للأكل قبل نُضْج بذرتها لأكلنا الثمار الموجودة ولم نستبق نوعها فتنقرض .

لذلك ، من حكمة الله أيضاً أن الثمرة إذا استوتْ ونضجَتْ ولم تجد مَنْ يقطفها تسقط من تلقاء نفسها ، وتُجدِّد دورتها في الحياة .

ولأمر ما جعل الله التكليف بعد البلوغ ، فلو كلَّفك قبل البلوغ لوجدتَ فى التكاليف نَهْياً عن بعض الأمور التى لا تعرفها ولا تدركها . وقد تعترض على ربك : كيف أفعل يا ربِّ وقد جاءتنى هذه الغريزة ففعلتْ بى كذا وكذا .

ولكل آلة وجهاز فى جسم الإنسان رُشْد يناسبه ، ونمو يناسب تكوينه ، فمثلاً عَيْن الطفل وفمه وأصابع يده كلها تنمو نمواً مناسباً لتكوين الطفل .

أما الأسنان ففيها حكمة بالغة من الخالق عز وجل ، فقد جعل للطفل فى المرحلة التى لا يستطيع فيها تنظيفَ أسنانه بنفسه ، ولا حتى يستطيع غيره تنظيفها جعل له (طقماً) احتياطياً من الأسنان ، يصاحبه فى صغَره تُسمَّى الأسنان اللبنية ، حتى إذا ما شَبَّ وكَبِر واستطاع أنْ يُنظِّف أسنانه بنفسه أبدله الله (طَقْماً) آخر يصاحبه طوال عمره .

وهناك رُشْد أعلى ، رُشْد فكرى معنوى ، رُشْد يستوى فيه العقل والتفكير ويكتمل الذِّهْن الذى يختار ويُفَاضل بين البدائل ، فقد يكتمل للمرء رُشْده البُنيانى الجسمانى دون أنْ يكتملَ عقله وفكْره ، وفى هذه الحالة لا نُمكِّنه من التصرف حتى نختبره ، لنعلم مدى إحسانه للتصرف فيما يملك ، فإنْ نجح فى الاختبار فَلْنُعْطه المال الذى له ، يتصرف فيه كما جاء فى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم[1] مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ .. ⦗٦⦘ ﴾ [النساء] أى : لا تنتظر حتى يكبر ، ثم تعطيه

(١) آنس الشىء : أدركه وأحسَّه ببصره ، أو بعلمه وفكره . وقوله ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا .. ⦗٦⦘ ﴾ [النساء] ، أى : علمتم وأدركتم إدراكاً معنوياً . [القاموس القويم ٣٧/١] .

ماله ، يفعل فيه ما يشاء دون خبْرة ودون تجربة ، إنما تختبره وتَشْركه فى خضمّ الحياة ومعتركها ، فيشبّ مُتمرِّساً قادراً على التصرف السليم .

وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ .. (٥)﴾ [النساء] لأنهم إنْ بلغوا الرُّشْد البدنىّ فلم يبلغوا الرُّشْد العقلى ، وإياك أن تقول : هو ماله يتصرف فيه كما يشاء ، فليس للسفيه مال بدليل : ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ .. (٥)﴾ [النساء] ولم يقُلْ : أموالهم ، فهو مالُكَ تحافظ عليه كأنه لك ، وأنت مسئول عنه أمام الله ، ولا يكون مال السَّفيه له إلا إذا أحسنَ التصرف فيه .

ومن الرُّشْد ما سماه القرآن الأشُدّ : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي[1] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. (١٥)﴾ [الاحقاف]

والأشُدُّ هو : التسامى فى الرُّشْد وقال هنا (أربعين سنة) مع أننا ذكرنا أن الإنسان يبلغ رُشْد البِنْية ورُشْد العقل بعد سنّ البلوغ فى الخامسة عشرة تقريباً ، إذن : مَنْ لم يرشُدْ حتى الأربعين فلا أملَ فيه ، والنار أوْلَى به ؛ لأنه حين يكفر أو ينحرف عن الطريق فى عنفوان شبابه وقوته نقول : شراسة الشباب والشهوة والمراهقة ، إلى آخر هذه الأعذار فإذا ما بلغ الأربعين فما عذره ؟

وإذا لم يتلقَّ مبادىء الرُّشْد فى صِغَره وفى شبابه ، فلا شكَّ أنه سيجد فى أحداث الحياة طوال أربعين سنة واقعاً يُرشده قَهْراً عنه ،

---

(١) أوزعه أن يفعل كذا : دفعه وحثّه وأغراه ، أو ألهمه وأرشده ، قال تعالى : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ .. (١٥)﴾ [الأحقاف] ، أى : ألهمنى شكرك وادفعنى إليه وحبّبه إلىّ . [القاموس القويم ٢/ ٣٣٤] .

حيث يرى أعماله وعواقبها وأخطاءه وسقطاته ، وينبغى أنْ يأخذ منها درساً عملياً نظرياً فى الرُّشْد .

ومن ذلك ما نسمعه من مصطلحات معاصرة يقولون « الرشد السياسى » ويقولون « ترشيد الاستهلاك » ، ما معنى هذه المصطلحات ؟ معناها أن أحداث الحياة وتجاربها وعدم الرُّشْد فى مسيرتهم عضَّت الناس ، وألجاتْهم إلى التفكير فى ترشيد يُذهب هذا الفساد .

إذن : فالرُّشْد للذات والترشيد للغير كما نفعل فى ترشيد استهلاك القمح مثلاً وكنا نعلف به المواشى ، حتى أصبحنا لا نجده ؛ لذلك بدأنا فى ترشيد استهلاك رغيف الخبز وصرْنا نقسمه أربعة أقسام ، ونأكل بحساب ، ولا نهدر شيئاً ، وما يتبقى يتبقى نظيفاً نأكله فى وَجْبة أخرى .

وقد لا يكون عند الخباز نفسه ترشيد ، فيُخرج الرغيف قبل استوائه متجده عجيناً ، كله لبابة ، فتأتى ربة البيت الواعية فتفتح الرغيف قبل وضعه على المائدة ، وتُخرج منه هذه اللبابة ، وتجمعها ثم تُحمِّصها فى الفرن ، وتصنع منها طعاماً آخر .

وما يقال فى « ترشيد الخبز » يقال فى « ترشيد الماء » ، وقد أمرنا رسول الله بترشيد استهلاك الماء حتى فى الوضوء الذى هو قربى إلى الله .

هذا الرُّشْد الذى وصفنا رُشْد كل عاقل غير الرسل ، وهو أنه يهتدى إلى قضايا حياته ، ويتصرّف فيها تصرفاً سليماً ، إنما مقتضى نتيجة هذا الصلاح فى الدنيا ، أما الرسل فلهم رُشْد آخر ، رُشْد أعلى للدنيا وللآخرة ، وهذه هبة من الله للرسل .

قال تعالى فى حَقِّ إبراهيم عليه السلام : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ .. (٥١)﴾ [الأنبياء] وكأن رُشْد إبراهيم لا يخضع لهذه القواعد ، ولا يرتبط ببلوغ ، ولا نبوة ، بل هو رُشْد سابق لأوانه منذ أنْ كان صغيراً يتأمل فى النجوم ويبحث عن ربه :

﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي هَـٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨)﴾ [الأنعام]

فكان ـ عليه السلام ـ مُؤهَّلاً للرسالة منذ صغَره ، ولما أُرسل ونُبِّىء ظهرتْ مواهب رُشْده حين أُلقى فى النار ، وجاءه جبريل ـ عليه السلام ـ يعرض عليه المساعدة ، فيقول إبراهيم : أما إليك فلا . وهذه أول بشائر الرشد الفكرى والعقدى عند إبراهيم .

وفى حقِّه قال تعالى : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .. (١٢٤)﴾ [البقرة] أى : اختبره فى أشياء فأتمهُنَّ وأتى بهنَّ على أكمل وجه ، منها : أنه طلب منه أنْ يرفعَ قواعد البيت ، وكان يكفى أن يرفع إبراهيم قواعد البيت إلى ما تطول يده ، إنما إبراهيم عليه السلام كان حريصاً أنْ يتم الأمر على أكمل وجه ، فيفكر ويحتال فى أنْ يأتىَ بحجر ويقف عليه ليرفع البناء بمقدار الحجر ، ويساعده ولده الصغير إسماعيل فيناوله الحجارة ، لكن الولد الصغير تتزحلق قدماه حينما يرفع الحجارة لأبيه ، فيحتال على هذا الأمر فيحفر فى الحجر على قَدْر قدميه حتى يثبت ، وهاتان القدمان نشاهدهما حتى الآن فى حِجْر إسماعيل .

إذن : كان عنده عِشْق للتكاليف وحِرْص على إتمامها .

وقوله تعالى : ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١)﴾ [الأنبياء] هذا واضح فى قوله تعالى : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. (١٢٤)﴾ [الأنعام]

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢)﴾

أى : اذكر يا محمد ، إذ قال إبراهيم لأبيه وقومه ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ .. (٥٢)﴾ [الأنبياء]

والتماثيل : جمع تمثال ، وهو مأخوذ من مِثْل أو مَثَل ، ومِثْل الشىء يعنى : شبيهه ونظيره ، وكانوا يعمدون إلى الأشياء التى لها جِرْم ويُصوِّرونها على صورة أشياء مخلوقة لله تعالى ، كصورة الإنسان أو الحيوان ، من الحجر أو الحديد أو الخشب أو غيرها ويُسمُّونه تمثالاً ، ويُقيمونه ليعبدوه .

وكانوا يبالغون فى ذلك : فهذا من الحجر ، وهذا من المرمر ، وهذا صغير ، وهذا كبير ، وقد يضعون فى عينيه خرزتين ليظهر للرائى أن له نظراً ، وهى ألوان من التفنن فى هذه الصناعة .

فإبراهيم ـ عليه السلام ـ يقول مستنكراً لأبيه وقومه ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢)﴾ [الأنبياء]

فالاستفهام هنا على غير حقيقته ، بل هو استفهام إنكارى يحمل لهجة الاستهزاء والسخرية والتقريع ، ولابد أنه ألقى عليهم هذا السؤال بشكل أدائى يُوحى بالتقريع .

وسبق أنْ تحدَّثنا فى معنى (أبيه) هنا وقلنا : المراد عَمُّه ،

بدليل قـوله فى موضع آخـر : ﴿ لأَبِيهِ آزَرَ .. (٧٤) ﴾ [الانعام] فقـد بدأ المسألة بأبيه أو عمـه ، وهو أقربُ الناس إليه ، يريد أن يطمئنَ الناسُ إلى ما يدعو إليه ، وأنه خير ، وإلا ما بدأ بأبيه .

وأيضاً لأن القومَ قد لا يكونُ لهم فى نفســه تأثير هَيْبة أو حُبٍّ إنما الهيـبة والحب موجود بالنسـبة لأبيه أو لعمـه ، ومع ذلك لم تمنعه هذه الهيبة أنْ يُسفِّه كلامهم وأفعالهم الباطلة ، كما جاء فى قول الله تعالى :

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾ [التوبة]

وقد وقف المـفسرون عند اللام فى قـوله تعالى : ﴿ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) ﴾ [الأنبياء] مع أن المعنى : يعكفون على عبادتها ، كما جاء فى آية أخرى : ﴿ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ .. (١٣٨) ﴾ [الأعراف] وهنا جاءت باللأم ؛ لذلك قال بعضهم : اللام هنا بمعنى على ، فلماذا عدَل عن على إلى اللام ؟

ولو تنبَّهنا لمعطيات الألفاظ ﴿ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) ﴾ [الأنبياء] نقول : الاعتكاف : هو الإقامة . فلان عاكف فى الـمسجد يعنى : على الإقامة فى المـسجـد ، فكلمـة عـاكفـون وحـدها تعطى مـعنى (على) أى : لصـالح هذه الآلهـة . أمّا اللام فلشــىء آخر ، الـلام هنا لام الملكيـة والنفعية . وذكروا لها مـثالاً آخر فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ .. (١٠٤) ﴾ [الأنبياء]

السِّـجل هو : القرطـاس والورق الذى نكتب فيـه ، ومنه قـولهم : نُسـجِّل كـذا يعنى : نكتبـه فى السِّجل أو الورق لتـحـفظ ، ومـعنى

﴿ لِلْكُتُبِ .. (١٠٤) ﴾ [الأنبياء] يعنى : الشىء المكتوب ، فكأن المعنى : نطوى الورق على ما كُتِب فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) ﴾

إذن : لا حُجَّة لهم فى عبادتهم لهذه التماثيل التى صنعوها وأقاموها بأنفسهم ، إلا أنهم رأوا آباءهم يعبدونها ، فحُجّتهم التقليد الأعمى ، ولو كان عندهم حجة لذاتية العمل لَقالُوها .

وفى موضع آخر قالوا : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) ﴾ [الزخرف] إذن : نعيب عليهم هذا التقليد ونعيب على آبائهم أيضاً ، فكيف يكون ردُّ إبراهيم إذن ؟

وكلمة ﴿ عَابِدِينَ (٥٣) ﴾ [الأنبياء] هنا تعبير عن أن عبادتهم لهم عبادة عن غير فَهْم ، لأن العبادة طاعة عابد لأوامر معبوده ، فبماذا أمرتهم الأصنام ؟

ثم يقول الحق سبحانه عن إبراهيم أنه قال لقومه :

﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) ﴾

أراد أنْ يُرشِد هذا السَّفَه فقال : أنتم فى ضلال ؛ لأنكم قلَّدتم فى الإيمان ، والإيمان لا يكون بالتقليد ، وآباؤكم لأنهم اخترعوا هذه المسألة وسنُّوهَا لكم .

ومن العجيب أنْ يُقلِّدوا آباءهم فى هذه المسألة بالذات دون غيرها ، وإلاَّ فَمن الذى يظل على ما كان عليه أبوه ، ونحن نرى كُلَّ جيل يأتى بجديد ممِّا لم يكُنْ معروفاً للجيل السابق .

لذلك يقولون : الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم ، فلكُل زمن وَضْعه وارتقاءاته ، وأنت تتحكم فى ولدك ما دام صغيراً ، فيأكل الولد ويشرب ويلبس حَسْب ما تحب أنت ، فإذا ما شبَّ وكَبر صارتْ له شخصيته الخاصة وفكْره المستقلّ ، فيختار هو مَأْكله وملْبسه ، والكلية التى يدخلها ، وربما انتقدكَ فى بعض الأمور .

إذن : هؤلاء قلَّدوا آباءهم فى هذه المسألة دون غيرها ، فلماذا مسألة الإيمان بالذات تتمسَّكون فيها بالتقليد ؟ ولو أن كُلَّ جيل جاء صورة طبْق الأصل لسابقه لما تغيَّر وَجْه الحياة ، ففى هذا دلالة على أن لكل جيل ذاتيته المستقلة وفكْره الخاص .

لقد قلَّد هؤلاء آباءهم فى هذه العبادة دون غيرها من الأمور ؛ لأنها عبادة وتديُّن بلا تكليف ، وآلهة بلا منهج ، لا تُضيِّق عليهم فى شىء ، ولا تمنعهم شيئاً مما ألِفُوه من الشهوات ، فهو تديُّن بلا تَبعة .

لذلك ؛ فالحق سبحانه يردُّ عليهم فى أسلوبين مختلفين ، فمرة يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة]

وفى موضع آخر يقول : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾ [المائدة]

ونلحظ أن عَجُزَ الآيتين مختلف ، فمرة : ﴿ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا .. (١٧٠) ﴾ [البقرة] ومرة : ﴿ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا .. (١٠٤) ﴾ [المائدة] فلماذا ؟

قالوا : لأن عَجُزَ كل آية مناسب لصَدْرها ، وصَدْر الآيتين مختلف ، ففى الأولى قالوا ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٧٠) ﴾

[البقرة] فيمكن أن نتبع هذا أو هذا ، دون أنْ يقصروا أنفسهم على شيء واحد .

وفى الثانية قالوا : ﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٠٤) ﴾ [المائدة] يعنى : يكفينا ، ولا نريد زيادة عليه ، فقصَروا أنفسهم على ما وجدوا عليه آباءهم .

لذلك قال فى عَجُز الأولى : ﴿ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا .. (١٧٠) ﴾ [البقرة] وفى عَجُز الثانية ﴿ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا .. (١٠٤) ﴾ [المائدة] لأن العاقل هو الذى يهتدى إلى الأمر بذاته .

أمّا الذى يعلم فيعلم ما عَقَله هو ، وما عَقَله غيره ، إذن : فدائرة العلم أوسع من دائرة العقل ؛ لأن العقل يهتَدى للشىء بذاته ، أمَّا العلم فيأخذ اهتداء الآخرين .

فكان ردُّهم :

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) ﴾

يعنى : أهذا الكلام يا إبراهيم جدٌّ ؟ أم أنك تَهْزِر معنا ؟ كأنهم يستبعدون أن يكون كلام إبراهيم جداً ؛ لأنه بعيد عن مداركهم .

﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) ﴾

يردّ إبراهيم : لقد جئتكم بالحق الذى يقول : إن هذه الأصنام لا تُعبد ، بل الذى يستحق العبادة هو الله ربُّ السموات والأرض : ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ .. (٥٦) ﴾ [الأنبياء] فـ (بل) تُضرب عما قبلها ، وتُثبت الحكم لما بعدها

﴿الَّذِى فَطَرَهُنَّ .. ﴿٥٦﴾﴾ [الأنبياء] يعنى : خلق السموات والأرض والأصنام ، وكل ما فى الوجود .

﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنبياء] والشاهد هو الذى اهتدى إلى الحق ، كأنه رأى العَيْن ، وليس مع العين أيْن ، واهتدى إلى الدليل على هذا الحق ، فقال : أنا شاهد على أن ربكم ربّ السموات والأرض ومعى الدليل على هذه الحقيقة .

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾

بعد ما حدث منهم من لجج وجدال بالباطل أقسم إبراهيم عليه السلام ﴿تَاللَّهِ .. ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء] والتاء هنا للقسم ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم .. ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء] وهل الأصنام تُكَاد ؟ أم أن المراد : لأكيدنكم فى أصنامكم ؟ فالأصنام كمخلوق من مخلوقات الله تُسبِّح لله ، وتشكر إبراهيم على هذا العمل .

وما أجملَ ما قاله الشاعر[1] فى هذا المعنى حين تكلَّم بلسان الأحجار فى غار حراء وغار ثور ، حيث كانت الحجارة تَغَارُ وتحسد حراء ؛ لأن المصطفى ﷺ كان يتعبَّد به قبل البَعْثة ، فحراء شاهدُ تعبُّد لرسول الله يزهو بهذه الصحبة ، فلما نزل رسول الله بغار ثور عند الهجرة فرح ثور ؛ لأنه صار فى منزلة حراء :

كَمْ حَسَدْنَا حراءَ حينَ تَرَى ... الرُّوحَ أميناً يغزُوكَ بالأنْوارِ
فَحراءُ وثَوْرٌ صَارَا سَواءً ... بهمَا تشفع لدولة الأحْجَارِ
عَبَدُونَا ونحْنُ أعبَدُ ... لله منَ القائمينَ بالأسْحَارِ
تخِذُوا صَمْتَنَا علينَا دَليلاً ... فَغدَوْنا لَهُمْ وقُودَ النَّارِ

(١) من شعر الشيخ ـ رضى الله عنه ـ فى قصيدة عن الهجرة .

لأن الله قال : ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٢٤) ﴾ [البقرة]

قَدْ تَجَنَّوْا جَهْــــلاً كما قَدْ تَجنَّوْهُ على ابْنِ مرْيَم والحَوارِى
لِلْمُغَالِى جَزَاؤُهُ وَالمغالَى فِيهِ تُنجيـــــهِ رَحْمَـــــةُ الغَفَّــار

إذن : فتحطيم الأصنام ليس كَيْداً للأصنام ، بلْ لعُبَّادها الذين يعتقدون فيها أنها تضرُّ وتنفع ، وكأن إبراهيم - عليه السلام - يقيم لهؤلاء الدليل على بطلان عبادة الأصنام ، الدليل العملى الذى لا يُدْفَع وكأن إبراهيم يقول بلسان الحال : حين أُكسِّر الأصنام إنْ كنتُ على باطل فليمنعُونى وليردّوا الفأسَ من يدى ، وإنْ كنتُ على حق تركونى وما أفعل .

وقوله تعالى : ﴿ بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) ﴾ [الأنبياء] أى : بعد أنْ تنصرفوا عنها . يعنى : على حين غَفْلة منهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) ﴾

ونلحظ هنا أن السياق القرآنى يحذف ما يُفهم من الكلام ، كما فى قصة سليمان - عليه السلام - والهدهد : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) ﴾ [النمل] وحذَف ما كان من الهدهد ورحلته إلى بلقيس ، وإلقائه الكتابَ إليها ، وأنها أخذتْه وعرضتْه على مستشاريها : ﴿ قَالَتْ يَٰأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) ﴾ [النمل]

ومعنى ﴿ جُذَاذًا .. (٥٨) ﴾ [الأنبياء] أى : قطَعاً متناثرة وحطاماً .

بعد أنْ كانت هياكل مجتمعة ﴿إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ .. (٥٨)﴾ [الأنبياء] أى : أنه تركه فلم يحطمه ، وقد كانوا يضعون الأصنام على هيئة خاصة و(ديكور) ، بحيث يكون الكبير فى الوسط ، وحوله الأصنام الصغيرة يعنى : كأن له سيطرةً عليهم ومنزلة بينهم ، وكانوا يضعون فى عينه الزبرجد ، حتى يُخيَّل لمَنْ يراه أنه ينظر إليه .

وقوله : ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨)﴾ [الأنبياء] فيسألونه عمَّا حدث لأولاده الآلهة الصغار ، ولماذا لم يدافع عنهم خاصةً وقد وجدوا الفأس على كتفه ؟

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩)﴾

أى : لما ذهبوا إلى المعبد الذى يعبدون فيه أصنامهم وجدوها مُحطمة فقالوا : ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩)﴾ [الأنبياء] لأنه اعتدى على الآلهة السليمة وكسَّرها .

إذن : هذه الآلهة لا تستطيع أنْ تدفع عن نفسها الضر ، وكان عليهم أنْ يتنبَّهوا إلى هذه المسألة ، كيف يقبلُون عبادتها ، ولو أوقعتْ الريحُ أحدَهم لكسرته ، فيحتاج الإله إلى مَنْ يُصلح ذراعه ويُرمِّمه ويُقيمه فى مكانه ، فأىُّ ألوهية هذه التى يدافعون عن حقوقها ؟!

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى[1] يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠)﴾

أى : تطوَّع بعضهم وقالوا هذا ، وكان للقوم يوم مُحدَّد يذهبون

---

(١) الفتى : الشاب ، وقد يُراد به الكامل من الشباب . [القاموس القويم ٢/٧٢] . قال القتيبى : ليس الفتى بمعنى الشابّ والحدَث ، إنما هو بمعنى الكامل الجزْل (الجيد الرأى العاقل) من الرجال . [لسان العرب ـ مادة : فتا] . قال ابن عباس فيما أخرجه ابن أبى حاتم وذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/١٨٢) : « ما بعث الله نبياً إلا شاباً ، ولا أُوتى العلم عالم إلا وهو شاب » .

فيه إلى معبدهم ومكان أصنامهم ، ويأخذون طعامهم وشرابهم ، ويبدو أنه كان يَوْمَ عيد عندهم ، وقد استعدَّ آزر لهذا اليوم ، وأراد أنْ يأخذ معه إبراهيم لعلَّ الآلهة تجذبه فيهتدي وينصرف عمَّا هو فيه .

لكن إبراهيم عليه السلام ادَّعى أنه مريض ، لا يستطيع الخروج معهم ، فقال ﴿إِنِّي سَقِيمٌ[1] (٨٩)﴾ [الصافات] وعندها عزم إبراهيم على تحطيم أصنامهم وقال : ﴿تَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧)﴾ [الأنبياء] سمعه بعض القوم فأخبرهم بأمره .

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ .. (٦٠)﴾ [الأنبياء] والذكْر هنا يعني بالشر بالنسبة لهم ، ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠)﴾ [الأنبياء] يعني : اسمه إبراهيم ، أو حين نناديه نقول : يا إبراهيم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١)﴾

ومعنى ﴿عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ .. (٦١)﴾ [الأنبياء] يعني : على مَرْأىً منهم ليشاهدوه بأعينهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١)﴾ [الأنبياء] أي : يشهدون ما نُوقعه به من العذاب حتى لا يجترىء أحد آخر أنْ يفعل هذه الفعْلة ، ويكون عبرةً لغيره .

﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢)﴾

هنا أيضاً كلام محذوف : فأتَوْا به ، ثم سألوه هذا السؤال ، والاستفهام ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا .. (٦٢)﴾ [الأنبياء] استفهام عن الفاعل ؛

---

(١) قال تعالى : ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩)﴾ [الصافات] . قال قتادة : والعرب تقول لمن تفكر : نظر في النجوم . يعني قتادة أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يلهيهم به فقال ﴿إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩)﴾ [الصافات] . أي : ضعيف . [تفسير ابن كثير ٤/١٣] .

لأن الفعلَ واضح لا يحتاج إلى استفهام ؛ لذلك لم يقُلْ : أفعلتَ هذا يا إبراهيم ، بل اهتم بالفاعل : ﴿ أأنت فَعلْتَ هَـٰذَا .. (٦٢) ﴾ [الأنبياء] كما تقول : أبنيتَ الدار التى كنتَ تنوى بناءها ؟ فهذا استفهام عن الفعْل ، إنما أأنت بنيت الدار ، فالمراد الفاعل .

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) ﴾

وكأنه يريد أنْ ينتزعَ منهم الإقرار بأن هذا الكبير لا يفعل شيئاً ، فيُواجههم : فلماذا - إذن - تعبدونهم ؟

وقَوْل إبراهيم ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا .. (٦٣) ﴾ [الأنبياء] فيه توبيخ وتبكيت لهم ، حيث ردَّ الأمر إلى مَنْ لا يستطيعه ولا يتأتَّى منه ، وقد ضرب الزمخشرى - رحمه الله - مثلاً لذلك برجل جميل الخطِّ ، وآخر لا يُحسن الكتابة ، فيرى الأخيرُ لوحة جميلة ، فيقول للأول : أأنت كاتب هذه اللوحة ؟ فيقول : لا بل أنت الذى كتبتَها !! تبكيتاً له وتوبيخاً .

ثم يُصرِّح إبراهيم لهم بما يريد : ﴿ فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) ﴾ [الأنبياء] وهم لن يسألوهم ؛ لأنهم يعرفون حقيقتهم .

﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ﴾

أى : تنبَّهوا وعادوا إلى عقولهم ، ونطقوا بالحق : ﴿ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ﴾ [الأنبياء] يعنى : بعبادتكم هذه الأصنام ، وأنتم تعلمون أنها لا تنفع ولا تضرُّ ، ولا ترى ولا تتكلم .

هكذا واجهوا أنفسهم بهذه الحقيقة وكشفوا عن بطلان هذه

العبادة ، لكن هذه الصحوة ستكون على حسابهم ، وخسارتهم بها ستكون كبيرة ، هذه الصحوة ستُفقدهم السُّلْطة الزمنية التى يعيشون فى ظلها ، وينتفعون منْ ورائها بمَا يُهدَى للأصنام ؛ لذلك سرعان ما يتراجعون ويعودون على أعقابهم بعد أن غلبهم الواقع وتذكَّروا ما تجرُّه هذه الصحوة :

﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[1]

فبعد أنْ جابهوا أنفسهم بالحق ﴿ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنبياء] والنكسة : أن الأعلى يأتى فى الأسفل ، وأنتم تعلمونها طبعاً !! ورجعوا يقولون له نفس حجته عليهم : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنبياء] وهذا هو التغفيل بعينه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ ﴾

يعنى : لا ينفعكم بشىء إنْ عبدتموه ولا يضرّكم بشىء إنْ تركتم عبادته .

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

---

(١) أى : عادوا إلى الضلال والانتصار لآلهتهم المحطمة بعد أن أرشدهم إبراهيم عليه السلام إلى أنها عاجزة لا تصلح آلهة . [القاموس القويم ٢/٢٨٧] .

أفٍّ : اسم فعل بمعنى أتضجر ، فليس اسماً ، ولا فعلاً ، ولا حرفاً ، إنما (أف) اسمٌ مدلوله فعل ، ففيه من الاسمية ، وفيه من الفعلية ؛ لذلك يسمونها « الخالفة » لأن كلام العرب يدور على اسم أو فعل أو حرف ، مثل هيهات : اسم فعل بمعنى بَعُدَ . فإبراهيم ـ عليه السلام ـ يعبِّر بهذه الكلمة (أفٍّ) عن ضيقه وتضجُّره ممَّا يفعل قومه من عبادة الأصنام من دون الله .

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

ونلحظ قولهم ﴿ حَرِّقُوهُ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنبياء] بالتضعيف الدالّ على المبالغة ، ولم يقولوا مثلاً : احْرقوه ، وقد اجتمعوا على هذا الفعل فبنَوْا بناءً وضعوا فيه النار ، ومكثوا أربعين يوماً يسجرونها[1] بكل ما يمكن أن يشتعل ، وبذلك اشتدت حرارة النار ، حتى إن الطير الذى يمرُّ فوق هذه النار كان يسقط مشوياً من شدة حرها[2] .

والدليل على ذلك أنهم لما أرادوا إلقاء إبراهيم فى النار لم يستطيعوا الاقتراب منها لشدة لَفْحها ، فصنعوا له مَنجنيقاً ليُلْقُوه به فى النار من بعيد .

وقولهم : ﴿ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنبياء] حسب اعتقادهم كأن المعركةَ بين إبراهيم والآلهة ، والحقيقة أن الآلهة التى يعبدونها مع إبراهيم وليست ضده ، فالمعركة ـ إذن ـ بين إبراهيم وبين عُبَّاد الأصنام .

---

(١) سجر التنور يسجره سَجْراً : أوقده وأحماه . وقيل : أشبع وقوده . [لسان العرب ـ مادة : سجر] .

(٢) قال ابن إسحاق : جمعوا الحطب شهراً ثم أوقدوها ، واشتعلت واشتدت ، حتى أنَّ كان الطائر ليمرّ بجنباتها فيحترق من شدة وهجها . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٦/٤٤٨١]

وقولهم : ﴿ إن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) ﴾ [الانبياء] يعنى : إنْ فعلتم شيئاً بإبراهيم فَحرِّقوه .

ثم يقول الحق سبحانه عن إنجائه لإبراهيم - عليه السلام - من هذه المَحْرقَة :

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾

جاء هذا الأمر من الحق الأعلى سبحانه ؛ ليخرق بالمعجزة نواميسَ الكون السائدة ، ولا يخرق الناموسَ إلا خالقُ الناموس ، كما قلنا في قصة موسى عليه السلام : الماء قانونه السيولة والاستطراق ، ولا يسلبه هذه الخاصية إلا خالقه ؛ لذلك فَرَقه لموسى فُرْقاناً - كما قلنا - كلُّ فرْق كالطَّوْد العظيم ، فلا يُعطِّل قانون الأشياء إلا خالقها ؛ لأن الأشياء لم تُخلق لتكون لها القدرة على قيُّومية نفسها ، بل مخلوقة تُؤدِّى مهمة ، والذى خلقها للمهمة هو القادر أنْ يسلبَها خواصَّها .

وفَرْق بين فعْل العبد وفعْل الحق سبحانه : فلو أنَّ في يدك مسدساً ، وأنت تُحسن التصويب ، وأمامك الهدف ، ثم أطلقتَ تجاه الهدف رصاصةً ، ألَكَ تحكُّمٌ فيها بعد ذلك ؟ أيمكن أنْ تأمرها أنْ تميلَ يميناً أو شمالاً ؟

لكن الحق سبحانه يتحكَّم فيها ، ويُسيِّرها كيف يشاء ، فالحق سبحانه خلق النار وخلق فيها خاصية الإحراق ، وهو وحده القادر على سلْب هذه الخاصية منها ، فتكون ناراً بلا إحراق ، فليس للنار قيومية بذاتها .

لذلك يقول البعض : بمجرد أنْ صدر الأمر : ﴿ يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء] انطفأت كل نار فى الدنيا ، فلما قال : ﴿ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء] أصبح الأمر خاصاً بنار إبراهيم دون غيرها ، فاشتعلت نيران الدنيا عدا هذه النار . ونلحظ أن الحق سبحانه قيَّد بَرْداً بسلام ؛ لأن البرد المطلق يؤذى(١) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

والمراد بالكيد هنا مسألة الإحراق ، ومعنى الكيد : تدبير خفيّ للعدو حتى لا يشعر بما يُدبَّر له ، فيحتاط للأمر ، والكيد يكون لصالح الشيء ، ويكون ضده ، ففى قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ .. ﴿٧٦﴾ ﴾ [يوسف]

أى : لصالحه فلم يقُلْ : كدْنا يوسف إنما كدْنا له ، وقالوا فى الكيد : إنه دليل ضعف وعدم قدرة على المواجهة ، فالذى يُدبِّر لغيره ، ويتآمر عليه خُفْية ما فعل ذلك إلاّ لعدم قدرته على مواجهته .

لذلك يقولون : أعوذ بالله من قبضة الضعيف ، فإنِّى قوىٌّ على قبضة القوى . فإذا ما تمكّن الضعيف من الفرصة لا يدعها ؛ لأنه لا يضمنها فى كل وقت ، أما القوى فواثق من قوته يستطيع أن ينال خَصْمه فى أىِّ وقت ، ومن هنا قال الشاعر :

وَضَعِيفَةٌ فَإِذَا أَصَابَتْ فُرْصَةً   قتلتْ كَذَلِكَ قُدْرَةُ الضُّعفَاء

---

(١) قال ابن عباس : لو لم يتبع بردها (سلاماً) لمات إبراهيم من بردها ، فلم يبق فى الأرض يومئذ نار إلا طفئت ، ظنت أنها هى تعنى . أخرجه الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم [قاله السيوطى فى الدر المنثور ٥/٦٤٠] .

لذلك استدلوا على ضعف النساء بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) ﴾ [يوسف] وما دام أن كيدهن عظيم ، فضعفهن أيضاً عظيم أو حتى أعظم .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠) ﴾ [الأنبياء] والأخسرون جمع أخسر ، على وزن أفعل ؛ ليدل على المبالغة فى الخُسْران ، وقد كانت خسارتهم فى مسألة حَرْق إبراهيم من عدَّة وجوه : أولاً أن إبراهيم عليه السلام لم يُصبْه سوء رغم إلقائه فى النار ، ثم إنهم لم يَسْلَموا من عداوته ، وبعد ذلك سيُجازون على فعْلهم ، هذا فى الآخرة ، فأىُّ خُسْران بعد هذا ؟

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) ﴾

﴿ نَجَّيْنَاهُ .. (٧١) ﴾ [الأنبياء] يعنى : كان هناك شرٌّ يصيبه ، وأذىً يلحق به ، فنجّاه الله منه ، وهذه النجاة مستمرة ، فبعد أنْ أنجاه الله من النار أنجاه أيضاً ممَّا تعرَّض له من أذاهم .

﴿ وَلُوطًا .. (٧١) ﴾ [الأنبياء] وكان لوط عليه السلام ابنَ أخ إبراهيم ﴿ إِلَى الأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) ﴾ [الأنبياء] أى : قلنا لإبراهيم : اترك هذه الأرض - وهى أرض بابل من العراق - واذهب إلى الأرض المقدسة بالشام ، وخُذْ معك ابن أخيك ، فبعد أنْ نجاهما الله لم يتركهما فى هذا المكان ، بل اختار لهما هذا المكان المقدس .

والأرض حينما تُوصَف يُراد بها أرضاً مُحدَّدة مخصوصة ، فإذا لم تُوصَف فتطلق على الأرض عامة إلا أن يعينها سياق الحال ، فمثلاً لما قال أخو يوسف : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِى أَبِى .. (٨٠) ﴾ [يوسف]

فالسـياق يُوضِّـح لنـا أنهـا أرض مصر .

لكن قوله : ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ .. (١٠٤) ﴾ [الإسراء] فلم تُعيِّن ، فدلَّ ذلك على أنها الأرض عامة ، اسكنوا كُلَّ الأرض ، يعني : تبعثروا فيها ، ليس لكم فيها وطن مستقل ، كما قال في آية أخرى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

فإذا أراد الله تجمعوا من الشتات ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ .. (١٠٤) ﴾ [الإسراء] أي : المرة التي سينتصرون فيها ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) ﴾ [الإسراء] وهكذا يتجمَّعون في مكان واحد ، فيسْهُل القضاء عليهم .

ومعنى ﴿ بَارَكْنَا فِيهَا .. (٧١) ﴾ [الأنبياء] البركة قد تكون مادية أو معنوية ، وهي الزروع والثمار والأنهار والخيرات ، أو بركة معنوية ، وهي بركة القيَم في الأرض المقدسة ، وهي أرض الأنبياء ، ومعالم النبوة والرسالات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً[(١)] وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) ﴾

يعطينا الحق سبحانه هنا لقطةً من قصة إبراهيم لكن بعيدة عمَّا نحن بصدده من الحديث عنه ، فقد وهب الله لإبراهيم إسحق لما دعا الله قال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) ﴾ [الصافات] مع أنه كان عنده

(١) النافلة : الحفيد ؛ لأنه زيادة بعد الابن . [القاموس القويم ٢/ ٢٨٠] . قال القرطبي في تفسيره (٦/ ٤٤٨٤) : « أي : زيادة ؛ لأنه دعا في إسحاق ، وزيد في يعقوب من غير دعاء . فكان ذلك نافلة ، أي : زيادة على ما سأل ، ويُقال لولد الولد نافلة ؛ لأنه زيادة على الولد » .

إسماعيل ، لكن إسماعيل من هاجر ، وقد تحركت مشاعر الغَيْرة لدى سارة ، ووجدت فى نفسها ما تجده النساء فى مسألة الولد ، وكيف يكون لإبراهيم ولد من هاجر التى زوَّجتها له دون أن يكون لها مثْله .

لذلك ألحَّتْ سارة على إبراهيم أن يدعو الله أنْ يرزقها الولد ، فدعا إبراهيم ربه ، وأراد الحق سبحانه أن يجيب إبراهيم ، وأن يُحقِّق له ما ترجوه زوجته ، لكن أراد أن يعطيه هذا الولد فى ملحظ عقدى يُسجِّل ولا يزول عن الأذهان أبداً ، ويظلُّ الولد مقترناً بالحادثة .

فبداية قصة إسحق لما أمر الله نبيه إبراهيم فى الرؤيا أن يذبح ولده إسماعيل ، فأخبره برؤياه : ﴿ يَـٰبُنَىَّ إِنِّى أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ .. (١٠٢) ﴾ [الصافات]

أراد إبراهيم أنْ يُشرك ولده معه فى هذا الاختبار ، وألاَّ يأخذه على غرَّة حتى لا تتغير نفسه نحو أبيه فيكرهه وهو لا يعلم ما حدث ، وأراد أيضاً ألاَّ يحرم ولده من الثواب والأجر على هذه الطاعة وهذا الصبر على البلاء .

أما إسماعيل فمن ناحيته لم يعارض ، ولم يقُلْ مثلاً : يا أبت هذه مجرد رؤيا وليست وحياً ، وكيف نبنى عليها ، بل نراه يقول : ﴿ يَـٰأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ .. (١٠٢) ﴾ [الصافات] ولم يقُلْ : أفعل ما تقول ، فما دام الأمر من الله فافعل ما أمرتَ به ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات]

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا .. (١٠٣) ﴾ [الصافات] أى : هما معاً إبراهيم وإسماعيل ﴿ وَتَلَّهُۥ[1] لِلْجَبِينِ (١٠٣) ﴾ [الصافات] يقال : تله يعنى جعل رأسه على

---

(١) تلَّه : ألقاه على وجهه على الأرض ، وقوله ﴿ وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ (١٠٣) ﴾ [الصافات] . أى : ألقاه وجبينه ووجهه إلى الأرض . [القاموس القويم ١/١٠١] .

التل ، وهو المكان المرتفع من الأرض ، و ﴿ لِلْجَبِينِ (١٠٣) ﴾ [الصافات] يعنى : جعل جبهته مباشرة للأرض ، بحيث يذبحه من قفاه ، وهذا هو الذَّبْح العاجل المثمر .

﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا .. (١٠٥) ﴾ [الصافات] وما دُمْتَ صدَّقْتَ الرؤيا ، فلكَ جزاء الإحسان ؛ لأنك أسرعتَ بالتنفيذ مع أنها رؤيا ، كان يمكنه أن يتراخى فى تنفيذها ، لكنه بمجرد أن جاء الأمر قام وولده بتنفيذه .

إذن : الحق سبحانه لا يريد من عبده إلا أنْ يُسلِّم بقضائه ، وصدق القائل[1] :

سَلِّم لربِّكَ حُكْمَهُ فَلِحكْمَةٍ يَقْضِيـ ـه حتى تستريح وتنْعمَا
واذْكُرْ خليلَ الله فى ذَبْحِ ابنه إذ قال خالقه فلما أسلمَا

لذلك لا يرفع الله قضاءً يقضيه على خلقه إلا إذا رُضِىَ به ، فلا أحدَ يُجبر الله على شىء . وضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - بالأب حين يدخل ، فيجد ولده على أمر يكرهه ، فيزجره أو يضربه ضربة خفيفة تُعبِّر عن غضبه ، فإنْ خضع الولد لأبيه واستكان عاد الوالد عطوفاً حانياً عليه وربما احتضنه وصالحه ، أمّا لو عارض الولد وتبجَّح فى وجه والده فإنه يشتد عليه ويُضاعف له العقوبة ، وتزداد قسوته عليه .

وهكذا الحال مع إبراهيم ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات] ففدينا له إسماعيل ، ليس هذا وفقط بل ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ .. (١١٢) ﴾ [الصافات] ثم زاده بأنْ جعل إسحق أيضاً نبياً مثل إسماعيل ، هذه هى مناسبة الكلام عن إسحق ويعقوب .

---

(١) الشيخ رحمه الله .